

القصص

من أساطير الإغريق

أجنحة ديدالوس

أول محاولة للطيران عرفها التاريخ
للأستاذ دريني خشبة

يحيطها هذه الشباب والنمرجات ، وفي وسطها فضاء فسبح
يربض فيه المينوطور أو يركض
ولندع الآن ذلك المينوطور الرهيب جأعاقى اللايرنث ،
لنرى ما كان من أمر ديدالوس بعد ذلك

ظل الناس يتحدثون عما وهب ديدالوس من عبقرية ،
وما أوتي من حنق ونبوغ ، وظلوا يتهافتون على آياته الفنية التي
كساها إلهامه ظلالا كظلال السحر ، وموهبا بأمواء القداسة
والخلود ، حتى كبر الفتي بركس ، ابن أخي ديدالوس ؛ وكان
شابا ممتلىء الجسم ، مفتول العضل ، قوى الملاحظة ، دقيق الفهم ،
سريع التصور ؛ ما كاد يتلمذ لعمه حتى بلغ شأوه ، بل هو قد
فاقه بمزج الشعر والموسيقى بفن الحفر والثالثة ، ولام بين روحها
جميعا ، فكان يبرز تحفه في مظهر دقيق وطرأز أنيق ؛ ثم هو
يضن عليها من شبابه النض ، وروحه العطرية الشاعرة ، ظلال
الحب ، وسحات الفتنة ، ويحرك فيها عواطف الآلهة

ولهج الاثينيون باسم هذا الفنان الشاب ، وتناسوا عمه الذي
هو أستاذه وملهمه . وضاق ديدالوس بابن أخيه ذرعا ، وساءه
أن تكشف شمسه الوضاعة الثلاثلة ، نجمه الذي لبث زمانا
يسلسل نور الفن في أرجاء هيلاس

وما فتىء المم يحنق ويحنق ، وما فتىء بركس يسمو بفنه
الى الذروة ، حتى لسعت عقارب الغيرة قلب الشيخ الفنان ،
ونفتت فيه سمها ، فلم يمد يده يطبق هذا الخضم الذي صنعه لنفسه
بيديه ، ولم يمد يده يحتمل أن يرى نفسه كأمهلا بجانب الفتي
البقري ، فأقسم ليزيحه من طريقه ، ولو بتجريمه كأس المنون ،
وزين له أن يحتمل عليه ، فيذهب وإياه الى شعاف جبل
شاهق ، ذى مهاو تنتهي الى اللج الجياش في اليم ، حتى إذا كانا
فوق الفتنة الشرفة على البحر المصطنع ، نهز منه غمرة ودفع به
الى الأعماق ، حيث ينشق له قبر من الموت . . . والنسيان !

وأنفذها ديدالوس السكين !

ولكن الآلهة كلها كانت تنظر ، وتستعد للمعجزة !

لم يكن في أثينا القديمة على ما اشتهرت به من روعة الفن
وكثرة الفنانين ، من هو أمهر من ديدالوس العظيم في نحت
الدُّمى وصناعة التماثيل ، وهندسة المباني الضخمة . ولقد كان
ينتقل بين المعاهد اليونانية ، وخاصة بين إقريطس وقيرص وأثينا ،
لكثرة الدعوات التي كانت تصله من ملوكها ، ليقوم على بنائهم
وليتعهد تماثيلهم ، وليشرف بنفسه على هياكلهم ، ليقال في
مواضع الفخر ، إن هذا التمثال ، أو تلك الدمية ، أو هذه الزخرفة
من عمل ديدالوس

واستفاضت شهرته ، وذاع صيته ، وملا الخافقين اسمه ،
ولا سيما بعد إذ شاد اللايرنث (التيه) لينوس ملك إقريطس ،
واللايرنث عمل من أجل الأعمال الهندسية القديمة ، إن لم يكن
أجلها جميعا . ذلك أنه كان لينوس وحش هائل مخرب يسمى
(المينوطور) ، نصفه الأسفل نصف عجول جسد ، ونصفه الأعلى
نصف رجل له أنياب الأسود ، وعدرة الذئب ، وقوة
التنين العظيم (١)

وكان لايفتك يقتل كل من اقترب منه ، ولو كان من خاصة
الملك . فلما استطار شره ، وعظمت بليته ، دعا مينوس الملك ،
ديدالوس المهندس ، ليشيد هذا البناء الرائع ، ذا النمرجات
والحنيات ، والشعاب المتداخلة ، التي لا يستطيع أحد أن يفلت
منها ، إذا انقتل فيها . وقد بناه ديدالوس على شكل دائرة عظيمة

(١) في الأسبوع المقبل نرى كيف يقتل الشاب تذيوس هذا
المينوطور العظيم

بل بطر واستكبر ، وكفر بأنهم مولاة وآلاته ، ومدَّ له هواه
فولغ في إناء الملك ، بعد أن اختلط بأهل بيته اختلاطاً شائناً
أدى إلى كثير من القيل والقال

وعلم الملك بما كان من خيانة ديدالوس فأمر بالقبض عليه ،
واعتقاله في إحدى غرف القصر حتى يُقضى في شأنه ؛ فالتى به
في حجرة منفردة في طرف القصر ، مشرفة على الماء ، متصلة بالسماه
وطالت عزلة الفنان الشيخ في معتقله هذا ، وضاق ابنه
بالجزع الضيق الذى يحبس أنفاس روحه ، ويحسر مرأى مقتلته ،
ويشيع الهم في حنايا ضلوعه ، فقال لوالده وهو يحاوره : « أهكذا
قضى علينا أن نموت هنا صبراً يا أبتاه ! » وكانت كلمات إيكاروس
المبللة بالدموع تذهب كالصدى في آذان الشيخ ، وكان الغلام يجتذب
اللفظة المفردة من فم أبيه ، فما يكاد يفوز إلا بلا ... أو بنعم ...
وكانت للفرقة التى اعتقلا فيها شرفة صغيرة تطل على البحر
الأبيض المتوسط ، وكان منظر السفائن الماخرة في البحر كالأعلام ،
والطير صافات من فوقها كأنها تسبح بدورها في لاج من زرقة
السماه ، يثير في نفس الفتى أحلاماً وأخيلة وأمنيات . وإنه لفي أصيل
جميل ينأى الطبيعة من شرفة سجنه الصغيرة ، إذا به يذهب إلى
والده مستبشراً متلهلاً ، ويقول : « أبى ! أعجزنا عن أن نضع
لنا أجنحة كهذه الطير . فنقلت بها من هذا المكان الرهيب ؟ »
وكان الشيخ جالساً في زلوية مظلمة من زوايا الغرفة يجتر
أحزانه ، ويتغنى آلامه ، فلما سمع ما خاطبه ابنه به ، افترفه
المعجوز عن ابتسامة متقبضة منفضة ، وشاعت في أساريره بوارق
أمل جديد !

وقال لابنه : « أجنحة ؟ وأتى لنا بالريش يا إيكاروس ؟ »
فقال الولد : « لا عليك يا أبى ، إن غرفة اللدجاج قريبة
من هنا ! »

وعبس الفنان الشيخ ، وقال : « والحارس الفظ ؟ ... »
فتضاحك إيكاروس قائلاً : « الحارس ! ؟ أمره أهون مما
ترى . . . سنرشوه يا أبتاه ، فيحضر لنا ما نشاء من الريش ،
وسنخذه أننا صانمان له لباساً لا يحل اللوك بمثله ! »

ولكن العبوسة التى رفت على جبين الشيخ أنشبت فيه جميع
مخالبها ، وقال : « دعنى أفكر يا بنى ، دعنى أفكر يا إيكاروس ... »

وهكذا كانت المبقرية البكر ، السكامة في هذا الفتى الصغير ،

وكيف ! ؟

لقد استجمع الشيخ كل قوته ، ووضع في يديه كل مُنته ،
ودفع بابن أخيه من فوق القننة ، فتردى الفتى على حدود الجبل ،
حتى إذا كان بينه وبين الموت قاب قوسين ، هبطت منيرفا (١)
سيدة الأولب ، وصاحبة أثينا ، من عليائها ، فأنتقت بردكس
من قتلة محققة ، ثم نفتت في أذنه نقتنين ، كان بهما فرخاً حزينا
من أفراخ القطا ، راح يرف في السماه مدوماً فوق عمه ، حتى
كاد يصمغه من حيرة وعجب ! !

وانقلب ديدالوس الى بيته أسوان أسفاً ، ووقر في نفسه
أن الآلهة التى سحرت بردكس لتتقدمه من تدييره السيء ، لا بد
أنها تترصده ، ولا بد أنها ستأخذه بأوزاره في القريب ، غير
متجنية ولا ظالمة ؟

ثم مضت سنون ، وولد لديدالوس طفل جميل الصورة ،
طلق الحيا ، مشرق النُرة ، سماه إيكاروس . ولكن الطفل لم
يستطع أن يخفف من الروع الذى كان ينتاب أباه ، أو يذهب
بسورة الهم التى كانت تجثم على قلبه ، وتثقل على نفسه ، كلا
تصور الهامة المفزعة التى يضطرب بها نومه ، فتقض مضجعه
وتزول كيانه .

لقد كانت القطاة تتمثل له كلا أعرض طرفه ، كأنها روح
ميت ترتق على خصمها تكاد تصمغه . وازداد الشيخ خيالاً
حينما ألحف عليه الأثينيون يسألونه عن بردكس أين قضى وآيان
ولى ! وأخذ الغوغاء يلغظون ، وشرع الخاصة يتسقطون أخبار
الفتى الفنان ، ودأبوا على عمه يسألونه عنه ، وهو يضل بهم
ويخترع لهم ، حتى أوجس أن ينكشف سره ، فينكل الناس به .
فأثر الهجرة عن أثينا المحبوبة ، إلى صديقه مينوس ملك إقريطس ،
مصطحباً معه ابنه الطفل إيكاروس

وتطامن الدهر ، وشب إيكاروس وترعرع ، وأخذ عن
والده من الفن ما أخذ بردكس من قبل ، وحسب ديدالوس أن
الزمان قد غفل عنه ، وأن أعين الآلهة قد غفت واستنامت ،
وأن الأيام قد ابتلعت إثمه الكبير في تضاعفها القائمة المظلمة ،
فاستيقظ الغرور في قلب الفنان الشيخ ، ولم يتقبل ما غمره به
مينوس الملك من النعم بالشكر الواجب على لاجيء طريد مثله ،

(١) منيرفا هى باللا أثينا ، وقد خلقت شجرة الزيتون فلأت الأرض
بركة . وكانت بردكس يصنع لها تماثيل رائعة ، وهى هنا تتقدمه لترده
قليلاً من جيله

ومرّاً بشطوط كثيرة ومروج كبيرة ، وكان الصيادون والزراع والبحارون وأهل القرى كلها رأوا هذين الطائرين الكبيرين ، ذوى الهيئة الآدمية ، خرّوا للأذقان سجداً ، يحسبون أنهما إلهان من آلهة السماء ، هبطا يباركان الناس والخلق ، فيهللون ويكبرون ! !

فهذا شيخ يطلب إليهما أن يباركا في عقبه ويمدّا في أجله ، وهذه شطاه تدعو أن يرُدّا عليها جمالها الضائع وشبابها الذاهب ، وتيك رؤوم تناجي ابنها في قبره فتطلب إليهما أن يُنفضاه من الترى ! وهؤلاء فلاحون يصرخون أن يمنا عليهم فيخلصاهم من الفقر والترتبة

وشاع الزهو في أعطاف إيكاروس ، فكان يرتفع قليلاً ، أو يهبط قليلاً عن سمت أبيه ؛ ثم تشجع وتشجع ، وبهرته زرقه السماء وأديمها الصافي ، فجازف وارتفع ارتفاعاً شاهقاً ، ونسى وصية أبيه ، فعلا وذهب في السماء صعداً ، وكان يفتره أن يصنر العالم الأرضي في عينيه ، فيعلم ويملو

وأسفاه ! ! لقد دنت ساعة الانتقام لك يا بردكس ! فلقد صهرت الشمس شمع الجناحين ، وهوى إيكاروس الى الأعماق ! ولادنا من والده صرخ صرخة هائلة دوت في أذن أبيه ، فنلفت الشيخ ليرى ولده يفوس في اليم ، يبتلمه صرة ويلفظه أخرى ! فأسرع الوالد المسكين الى البحر ، وانتشل ولده من الماء جثة هامدة ! وكان هو بدوره قد أذاب الماء شمع جناحيه ، فمالج الموج معالجة ، وسبح بقلته كبدته الى جزيرة قريبة ، بلنها بمد جهد وعناء !

وجلس يبكي ولده . . .

ثم شق له قبراً صغيراً في رمل الشاطئ ، وما كاد يُسرّه فيه ، حتى رأى قطاة حزينة تدوم في السماء ، ثم تهبط قليلاً قليلاً ، حتى تكون بمقربة من القبر ، فتقف كالغفة مشجونة وتنتظر الى الجثة والدموع تنهل من عينها .. عبرة ، فعبرة .. ويفرغ الشيخ من مواراة ولده في التراب وينتبه ! فيرى القطاة ! فينشج نشيجاً مؤلماً ، ويقول : « بردكس ! ! أنبت تبكي إيكاروس ! ! سامحني يا بردكس ! »

فتزق القطاة كأنها تنتحب ! ثم تدنو من القبر حتى تكون فوقه ، فتذرف عبرتين غاليتين ، وترف في الهواء حتى تفيب عن عيني ديدالوس ! !

درسي هبة

لقاحاً بعيد الأثر في عبقرية الشيخ الفاني المهتم ، وهكذا بدأ الفنان الأكبر ، باني اللايرنث ، ومشيد هياكل الآلهة ، يفكر في هذا المقترح الشارد الذي اقترحه عليه الفنان الصغير !

« أجنحة . . . دجاج . . . ريش . . . الحارس فقط . . . مينوس . . . بردكس . . . فرخ القطا . . . الطير . . . إيكاروس ابني . . . ! » وهكذا انبطح الشيخ على وثيرته تتداعى هذه الخلجات في رأسه الساخن المتأجج ، تذكي فيه الذكريات والمآسى ! واحتال الفتى على الحارس حتى حصل على مقادير هائلة من ريش البط والأوز والديكة ؛ وفكر الشيخ كيف يثبت الريش في مكانه من عضد الجناح ، فادخر الشموع التي كانت تترك له يضيئها في الليل ، ليتضاعف بلهيبها الخافت حزنه ؛ حتى إذا كان لديه قدر كبير منها ، عمد إليها فصهرها ، وثبت بها ماشاء من الريش ، وبذلك صنع زوجين من الأجنحة الكبيرة ، يكفي أحدهما لمل فيل !

وجلس يحض ابنه النصيح فقال :

« أي بني ! أي إيكاروس العزيز ! ستطير من هنا يا ولدي ! الى أين ؟ لست أدري ! ولكننا سنفلت من هذا السجن على كل حال ! وهأنذا قد صنعت الأجنحة التي تخيلها أمك الصغير الذي هو أكبر من جميع آمالى ! ولقد رأيت الى كيف كنت أذيب الشمع قريباً من النار يا ولدي ، فأوسيك إذا طرنا الأتراك سميتي ، وأن تكون دائماً قريباً مني ، فاني أخشى إذا علوت علواً شاهقاً أن تصهر الشمس شمع جناحيك ، فتهوى في البحر ، وتتردى في أعماق الموت ! وكما أخشى عليك من العلو الشاهق ، فكذلك لا أرى لك أن تدنو من الماء ، فانه إن وصل الى الشمع أيده ، ولم يمد يصلح لهمة الطيران ، إذ يساقط قطعة قطعة ، ويتناثر الريش ، وتسقط ، إما في البحر فتفرق ، وإما في الأرض فيندق عنقك . فلا تنس يا بني أن تتبعني أبداً ، واحذر أن تملو فتدنو من الشمس ، أو أن تسفل فيصيبك رذاذ الماء ورشاشه . الى يا ولدي أثبت لك جناحيك ، ولنمض على بركة ز . . . ز . . . زيوس ! ! » وتلجج لسانه حين أراد أن ينطق باسم الآلهة الأكبر ، لأنه يتق أنه لا يخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وهو محيط ببناده ، لا ينسى أن ينتقم من الظالمين للمظلومين !

وانطلقا من الشرفة ، وألقيا على القصر ، وما أحاط به من حرمين وعسس ، نظرات كلها تقمة وتغيظ . . .